ذو النّابين



صديقي شرشر

أصالة

أصالة للنشر والتوزيع تلفون: 01/ 741444 فاكس: 01/736071 ص.ب. 11/3434
بئر حسن – بناية الدجى – بيروت – لبنان

ذو النّابين

تأليف ورسومات : باسل عبد الخالق

جَرَتْ أَحْداثُ هذِهِ القِصَّةِ في قَرْيَةِ "كاشْ مار" خلالَ العَصْرِ البْرونْزِيِّ.

"كاشْ مار" قَرْيَةٌ تَقَعُ عَلى حُدودِ غابَةٍ كَبيرَةٍ يُطْلِقُ السُّكّانُ عَلَيْها إسْمَ "الغابَةِ السَّوْداءِ" لِكَثافَةِ أَشْجارِها، وتَعَذُّرِ وُصولِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ إلى أَرْضِها.

وتَمْتَلِئُ الغابَةُ بِأَنْواعِ الحَيَواناتِ المُفْتَرِسَةِ، والزَّواحِفِ السّامَّةِ، والطُّيورِ الجارِحَة...

وتَمَيَّزَ سُكّانُ القَرْيَةِ بِاللُّطْفِ والوَداعَةِ والطِّيبَة. كانوا يَكْرَهونَ الصَّيْدَ ويُحَرِّمونَهُ على أَنْفُسِهِم، لِما يُمَثِّلُهُ الصَّيْدُ مِنْ قَتْلٍ لِحَيَوانٍ ضَعيفٍ، أو طائِرٍ مُغَرِّد... ويَنْبُذونَ كُلَّ مَنِ اتَّخَذَ الصَّيْدَ حِرْفَةً أَوْ هِوايَةً، فَلا يَتَحَدَّثونَ إلَيْهِ، بل يَبْتَعِدون عَنه.

إتَّخَذَ سُكّانُ القَرْيَةِ الزِّراعَةَ وَسيلَةً لِلْعَيْش. فَزَرَعوا الخُضارَ والحُبوبَ وأَشْجارَ الفاكِهَة، فَهَذَّبَتِ الزِّراعَةُ طَبائِعَهُم، ولَوَّنَتْها بِأَلْوانِ التَّحابِّ والعَطاءِ، وطَرَدَتْ مِنْها نَوايا الشَّرِّ والأذى. كُلُّ ذلِكَ جَعَلَهُمْ يَعيشونَ في سَلامٍ وطُمَأْنينَةٍ إلى سِنينَ طَويلَة.



وعِنْدَ الانْتِهاءِ مِنْ مَوْسِمِ الحَصادِ السَّنَوِيِّ، كانَ السُّكانُ يَجْتَمِعونَ في ساحَةِ القَرْيَةِ، فيَحْتَفِلون صِغاراً وكِباراً، ذُكوراً وإناثاً: تَتَشابَكُ الأَيْدي في رَقْصَةٍ جَماعِيَّةٍ عَلى شَكْلِ حَلَقَةٍ، وتَتَمايَلُ النِّسْوَةُ بِأَجْسادِهِنَّ مَعَ أَنْغامِ النّاياتِ، وتَضْرِبُ أَرْجُلُ الرِّجالِ المُصطَفّينَ بِقُوَّةٍ وانْتِظامٍ عَلى الأَرْضِ، مَعَ إيقاعِ الطَّبْلِ والمِزْمارِ وتَصْفيقِ المُشاهِدين.

ويُمَزِّقُ أَجْواءَ الفَرَحِ صَوْتٌ مَصْحوبٌ بِالأَلَمِ والأَنينِ والاسْتِغاثَة.
يَسودُ الصَّمْتُ أَجْواءَ الاحْتِفالِ، ويَتَوَقَّفُ الجَميعُ يَتَساءَلون: "ما الّذي حَدَثَ؟ مَنْ صاحِبُ هذا الصَّوْتِ المُخيف؟".



يُسْرِعُ أَحَدُهُمْ بِاتِّجاهِ الغابَةِ، فَيَتوَقَّفُ بَعْدَ فَتْرَةٍ مُشيراً بِيَدِهِ قائِلاً: «هُناك... هُناك».

يَحْمِلُ الكِبارُ أَوْلادَهُمْ ويُشيرونَ إلى نِسائِهِمْ بِالعَوْدَةِ مُسْرِعينَ إلى بُيوتِهِمْ، فَيدْخلونَها ويُحْكِمونَ إغْلاقَ أَبْوابِها ونَوافِذِها.

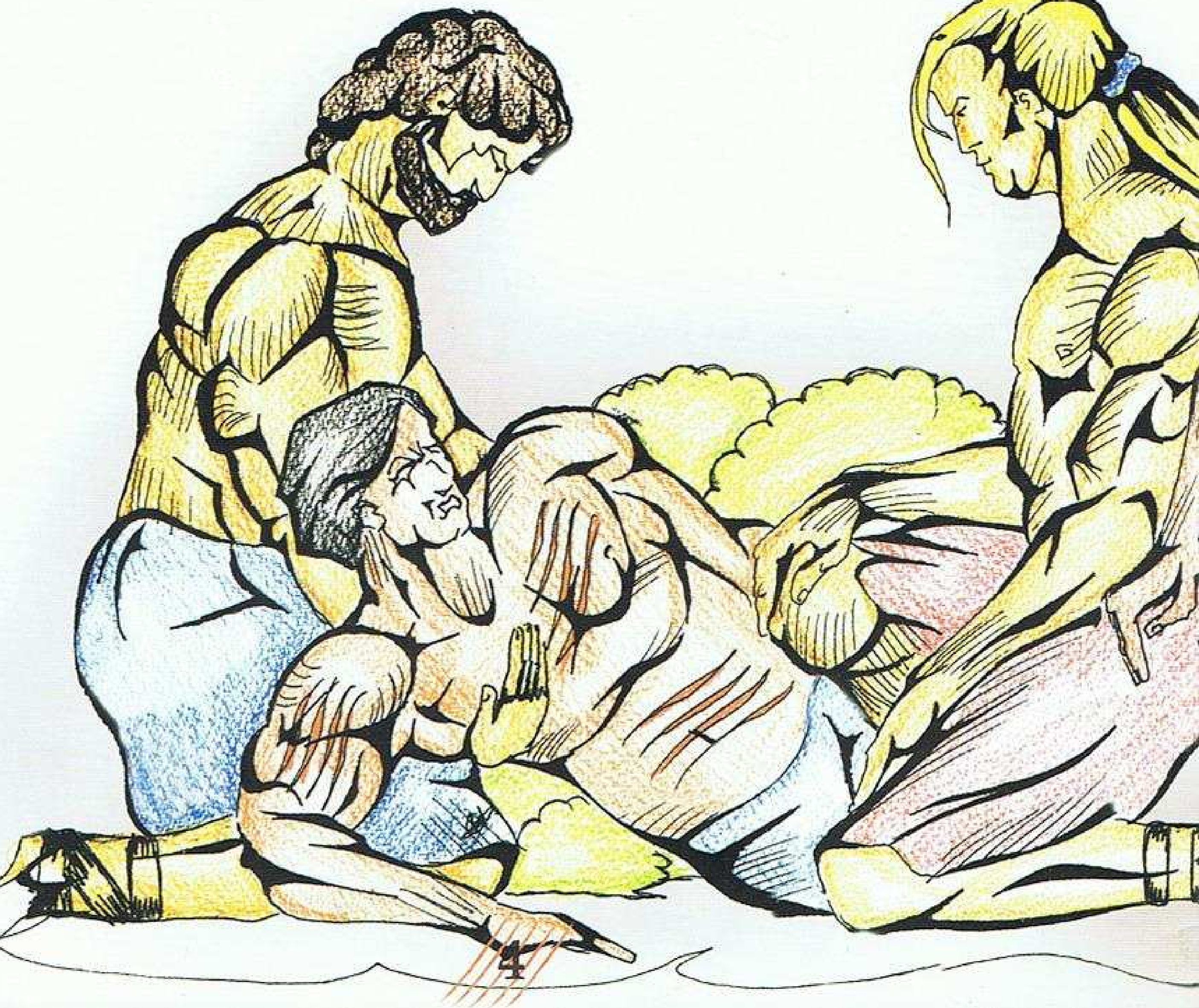
ويَتَّجِهُ بَعْضُ الشَّبابِ إلى الغابَةِ فَيَجِدونَ عِنْدَ أعاليها رَجُلاً جَريحاً مُمَدَّداً على ظَهْرِه...



يَقْتَرِبُ أَحَدُ الشَّبابِ مِنَ الجَريحِ لِيُعايِنَ جِراحَهُ، ويُسْنِدُ آخَرُ رَأْسَ الجَريحِ إلى صَدْرِهِ، ويُحاوِلُ ثالِثٌ إيقافَ النَّزيفِ المُتَدَفِّقِ مِنْ جِراحِه... ويَسْأَلُهُ رابِعٌ: «ما الَّذي حَدَثَ؟ مَنْ طَعَنَكَ في صَدْرِكَ؟».

يَنْظُرُ الجَريحُ بِعَيْنَيْنِ حائِرَتَيْنِ مُتَنَقِّلَتَيْنِ بَيْنَ وُجوهِ الرِّجالِ.. يُحاوِلُ أَنْ يُرَكِّزَ نَظَراتِهِ الزّائِغَةَ فَيَفْشَل. وتَنْسابُ الحُروفُ مُتَقَطِّعَةً مِنْ شَفَتَيْهِ المُرْتَجِفَتَيْنِ: «إِنَّهُ س.. ي.. و.. ف.. ويَفْقِدُ وَعْيَه».

يَحْمِلُهُ الرِّجالُ مُسْرِعينَ بِهِ إلى طَبيبِ القَرْيَةِ، لكِنَّهُ لَفَظَ أَنْفاسَهُ الأَخيرَةَ بَيْنَ أَيْدي الرِّجالِ.



تتلَبَّدُ أجْواءُ القَرْيَةِ بِغُيومٍ سَوْداءَ حَزينَةٍ مَمْزوجَةٍ بِمَشاعِرِ القَلَقِ والخَوْف...
ما الّذي جَرى؟
وما الّذي قَصَدَهُ بِكَلِمَةِ "سُيوف"؟
هَلِ القاتِلُ لِصٌ، أَمْ مُجْرِم؟

وتَتلاحَقُ الأَحْداثُ مُتَسارِعَةً:
- قَطيعٌ مِنَ الماعِزِ يُقْضى عَلَيْهِ دُفْعَةً واحِدَة.
- دَوابُ الحَرْثِ والماشِيَةِ أَصابَها نَوعٌ مِنَ الجُنون... فَقَدْ بَقِيَتْ مُلازِمَةً حَظائِرَها تَمْتَنِعُ عَنِ الخُروجِ إلى الحُقول...
- عُيونٌ تَتَوَهَّجُ حِقْداً وناراً، يُشاهِدُها بَعْضُ الشَّبابِ تَتَقَدَّمُ مِنَ الغابَةِ بِاتِّجاهِ القَرْيَة.
- طِفْلَةٌ صَغيرَةٌ خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِها الكائِنِ في طَرَفِ القَرْيَةِ، ولَمْ تَعُدْ.

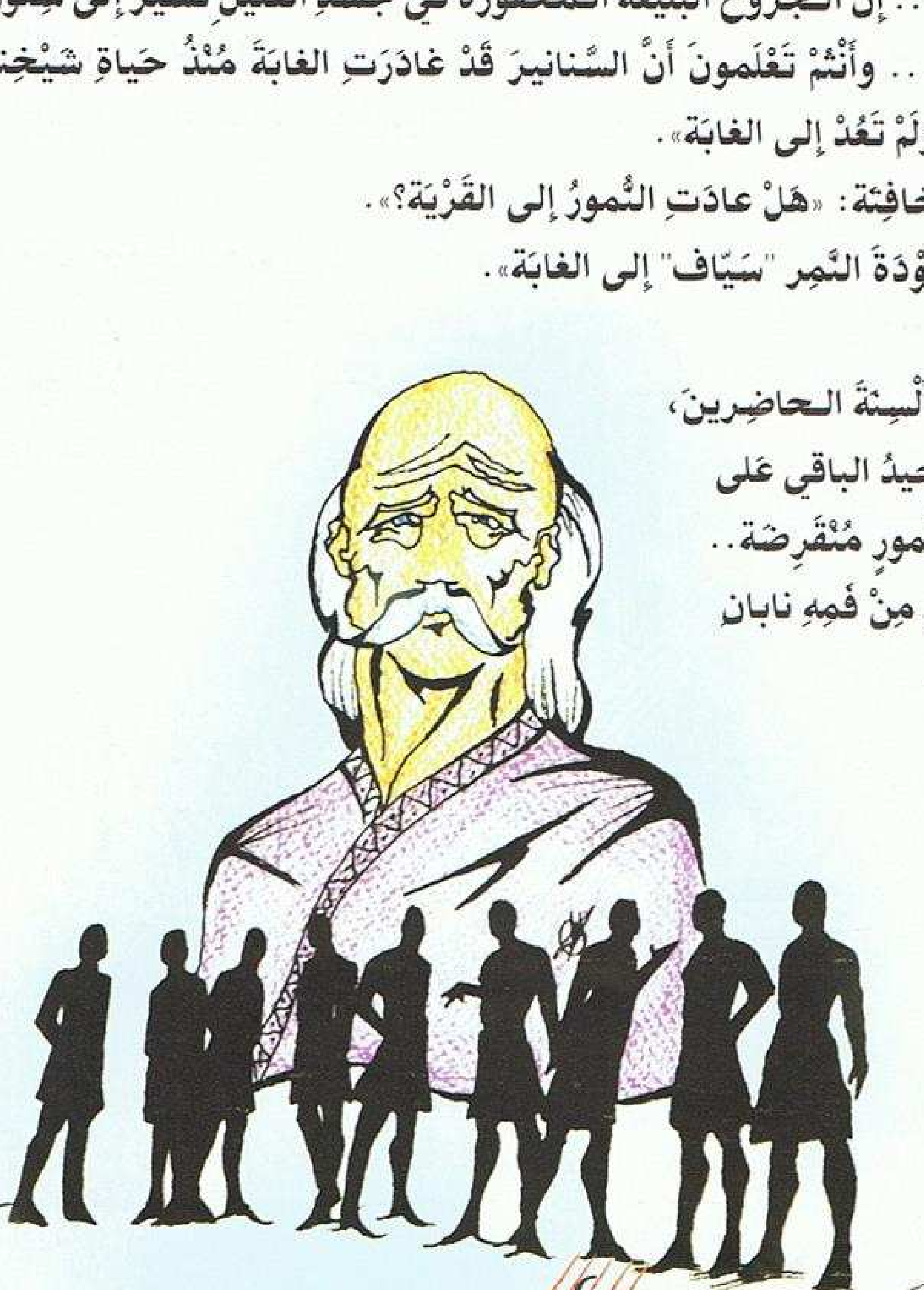
الوَضْعُ خَطيرٌ ويُنْذِرُ بِعَواقِبَ وَخيمَة.
يَدْعو شَيْخُ القَرْيَةِ الأَهالي لِلاجْتِماعِ عَشِيَّةً في دارَتِهِ، لِيَتَشاوَروا ويُواجِهوا الخَطَرَ المَجهول.
وشَيْخُ القَرْيَةِ رَجُلٌ مسِنٌّ، اكْتَسَبَ الخِبْرَةَ والحِكْمَةَ وبُعْدَ النَّظَرِ، وجَمَعَ إلى ذلِكَ الشَّجاعَةَ والإقْدامَ اللَّذَيْنِ اتَّصَفَ بِهِما في مَرْحَلَةِ الشَّباب.



يَتجَمَّعُ الجَميعُ حَوْلَ شَيْخِهِم، يُنْصِتونَ إلى كُلِّ كَلِمَةٍ سَوْفَ يَنْطُقُ بِها:
يَسْأَلُهُ أَحَدُهُم: «ما الّذي يَجْري في القَرْيَة؟».
ويُتابِعُ آخَر: «مَنِ الّذي خَطَفَ الفَتاةَ الصَّغيرَةَ وافْتَرَسَ القَطيعَ وزَرَعَ الرُّعْبَ في القَرْيَة؟».
ويَقولُ ثالِث: «مِسْكينَةٌ تِلْكَ الطِّفْلَة... لَقَدْ فَقَدَ أَهْلُها صَوابَهُم».
ويُجيبُه آخَرُ: «لا شَكَّ أَنَّها وُحوشُ الغابَةِ المُتَوَجِّهَةُ إلى قَرْيَتِنا، وتُريدُ افْتِراسَنا.
هذا صَحيح، أَلَمْ تَروا هِجْرَةَ أَسْرابِ الطُّيورِ إلى جِهَةِ الشَّمال؟».

يُشيرُ شَيْخُ القَبيلَةِ إلى الجَميعِ بِيَدِه: «هُدوءاً، تَمالَكوا مَشاعِرَكُم...
الأَمْرُ خَطيرٌ كَما عَلِمْتُم... إنَّ الجُروحَ البَليغَةَ المَحْفورَةَ في جَسَدِ القَتيلِ تُشيرُ إلى سِنَّورٍ قَدْ مَزَّقَ جَسَدَ ضَحِيَّتِه... وأَنْتُمْ تَعْلَمونَ أَنَّ السَّنانيرَ قَدْ غادَرَتِ الغابَةَ مُنْذُ حَياةِ شَيْخِنا " نايْبِر " - رَحِمَهُ الله - وَلَمْ تَعُدْ إلى الغابَة».
يَنْطُقُ أَحَدُهُمْ بِصَرْخَةٍ خافِتَة: «هَلْ عادَتِ النُّمورُ إلى القَرْيَة؟».
يَرُدُّ الشَّيْخ: «أُؤَكِّدُ لَكُمْ عَوْدَةَ النَّمِر "سَيّاف" إلى الغابَة».

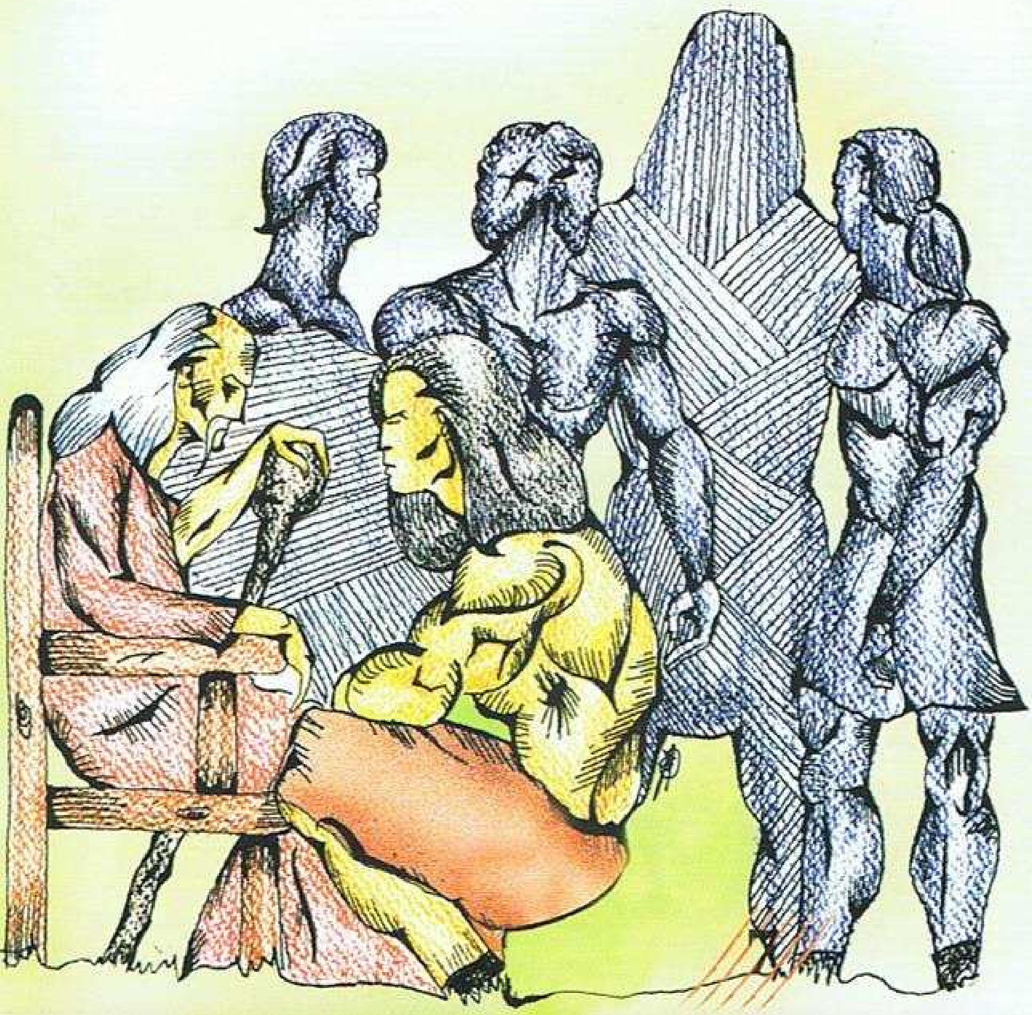
يَعْقِدُ الخَوْفُ وَالدَّهْشَةُ أَلْسِنَةَ الحاضِرين،
فَـ"سَيّاف" هُوَ النَّمِرُ الوَحيدُ الباقي على قَيْدِ الحَياةِ مِنْ فَصيلَةِ نُمورٍ مُنْقَرِضَة..
إنَّهُ ضَخْمُ الجُثَّةِ، يَتَدَلّى مِنْ فَمِهِ نابانِ كَأَنَّهُما سَيْفانِ قاطِعان.



ويَسودُ بين الحاضِرينَ ارتباكٌ وكَلام...
يُضيفُ الشّيْخ: "هَدِّئوا مِنْ رَوْعِكُمْ، فالمَوْقِفُ يَتطَلّبُ الشّجاعةَ والحِكْمَة. أُريدُ أنْ يَتطَوّعَ عَدَدٌ مِنَ الرِّجالِ أوْ أحَدُكُم، فيَتوَجّهَ إلى الغابَةِ لِيَستوضِحَ حَقيقَةَ الأمْر".

لَمْ يَتقدّمْ أحَدٌ مِنَ الرِّجالِ، فصورَةُ "سَيّاف" المُخيفَةُ جَعَلَتِ الحاضِرينَ يَتبادَلونَ نَظَراتِ الخَوْفِ والتّرَدُّد.
يُعاتِبُهُمُ الشّيْخ: «هَلْ فَقَدْتُمْ مَعانيَ الشّجاعَةِ والرُّجولَة؟ أمْ أنَّ الزّرْعَ أفْقَدَكُمُ الشّجاعة وَطَبَعَكُمْ بِطابِعِ الهُدوءِ والاسْتِسْلام؟».

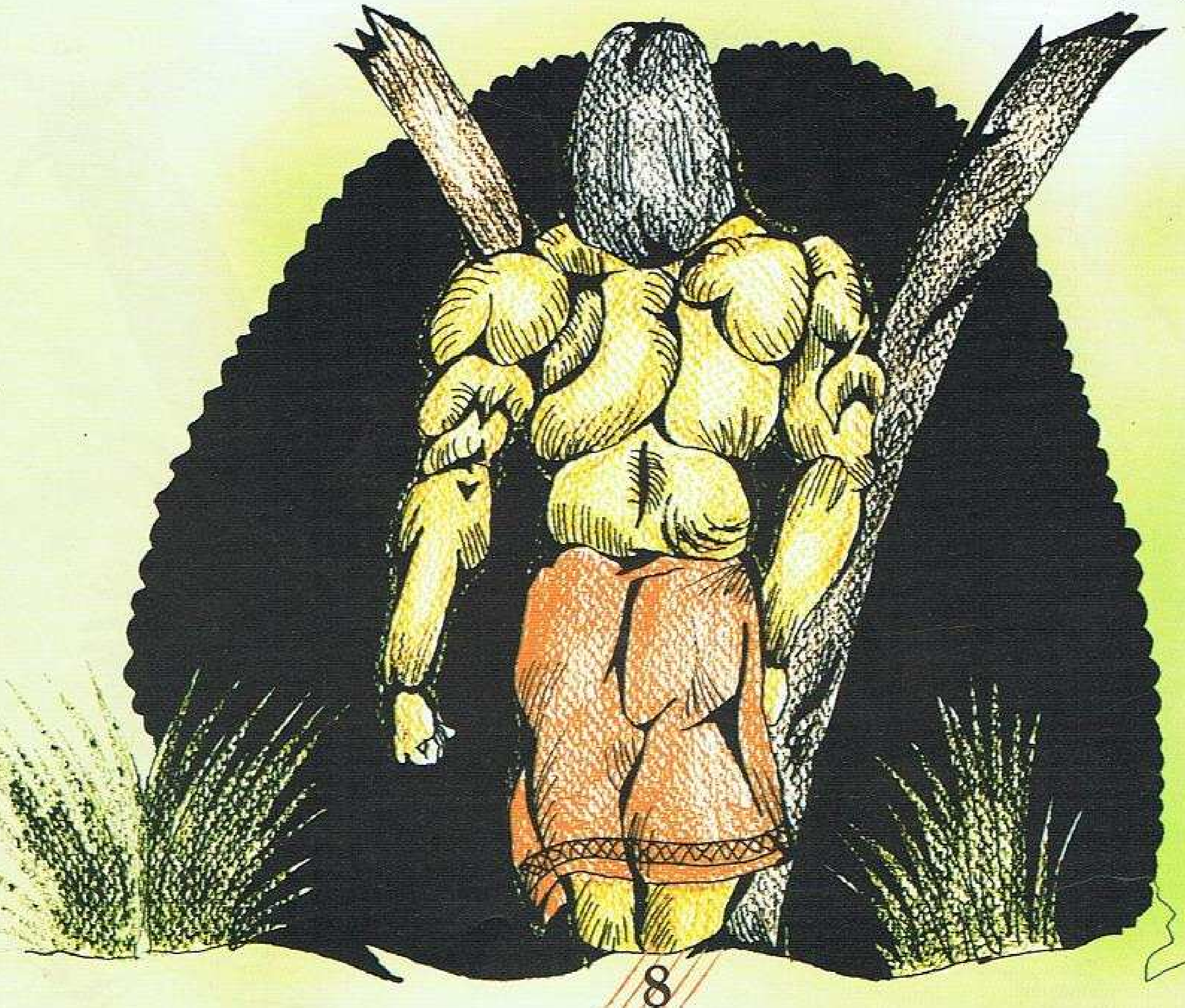
ويَبْرُزُ مِنْ خَلْفِ الحاضِرينَ شابٌّ طَويلُ القامَةِ، مَفْتولُ السّاعِدَيْنِ، عَريضُ المَنْكَبَيْنِ، كَأنّهُ مارِدٌ، فَيَقْطَعُ الصّمْتَ قائِلاً: « إنّني رَهْنُ إشارَتِكُمْ وطَوْعُ أمْرِكُم... النّمِرُ "سَيّاف" طَريدَةٌ لا تُرْهِبُ الصّيّادَ الماهِرَ "فاس"».
يَلْتَفِتُ الحاضِرونَ إلَيْهِ الْتِفاتَةً واحِدَةً وسَريعَةً، مُظْهِرينَ غَضَبَهُمْ لِحُضورِهِ، ومُعَبِّرينَ عَنْ غَيْظِهِمْ لِمِهْنَةِ الصّيْدِ الّتي اخْتارَها لِنَفْسِهِ، وأدّتْ إلى نَفْيِهِ خارِجَ القَرْيَة.



الشَّيْخ: «أَلَسْتَ أَيُّها الشُّجاعُ إبْنَ "راشك"؟».
الصَّيّاد: «بَلى يا سَيِّدي، إنَّني "فاس" إبنُ "راشك"».
الشَّيْخ: «إقْتَرِبْ يا بُنَيَّ، واجْلِسْ إلى جانِبي».

يَتقَدَّمُ الصَّيّادُ ويَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيْ شَيْخِ القَرْيَةِ، مُنْصِتاً إلى كُلِّ كَلِمَةٍ يَنْطُقُ بِها.
الشَّيْخ: «نُريدُكَ أَنْ تَكونَ شَديدَ الحيطَةِ والحَذَرِ واليَقَظَةِ، فَأَنْتَ يا بُنَيَّ أمامَ طَريدَةٍ مِنْ نَوْعٍ لَمْ تَعْتَدْ عَلَيْهِ مِنْ قَبْل... نُريدُ أَنْ تَعودَ سَريعاً لِتُخْبِرَنا حَقيقَةَ الخَطَرِ المُحْدِقِ بِنا، ولا نُريدُكَ أَنْ تُواجِهَ الخَطَرَ، نُريدُ أَنْ تَتَجَنَّبَهُ وتُحافِظَ عَلى حَياتِكَ، وتَعودَ سالِماً».

ويَنْصَرِفُ سُكّانُ القَرْيَةِ عائِدينَ إلى بُيوتِهِم، وقَدْ عَلَتْ وُجوهَهُمْ عَلاماتُ الحَذَرِ والخَوْفِ والتَّرَقُّب.
لَمْ يَعْرِفْ أَهالي القَرْيَةِ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ طَعْمَ النَّوْمِ والرّاحَة، فَكَأَنَّ زِلْزالاً قَدْ ضَرَبَ الغابَةَ فأَرْعَبَ حَيَواناتِها، وفَرَّقَ سُكّانَها.
وفي اليَوْمِ التّالي، خَرَجَ سُكّانُ القَرْيَةِ يَتَقَدَّمُهُمْ شَيْخُهُمْ يُوَدِّعونَ "فاساً" ويَتَمَنّونَ لَهُ العَوْدَةَ سالِماً.

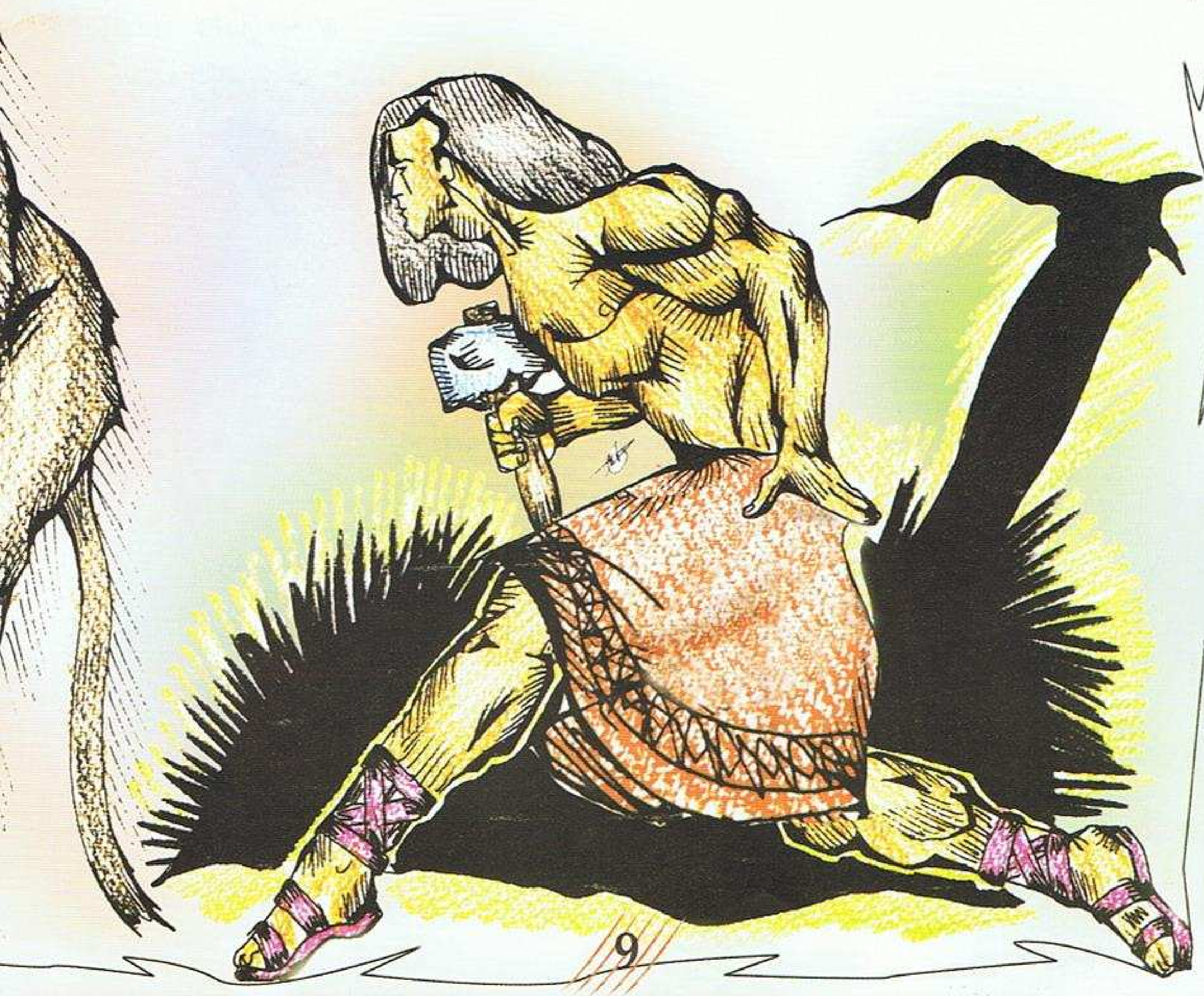


إتَّجهَ "فاس" نَحْوَ الغابَةِ مُتنقِّلاً بِحَذَرٍ وخِفَّةٍ بيْنَ دُروبِها، يَتسَلَّقُ الأشْجارَ حيناً، ويَخْتبِئُ وَراءَ صَخْرَةٍ أو شجَرَةٍ حيناً آخَر.

ولَفَتهُ الصَّمْتُ المُخيِّمُ على الغابَة... إنَّهُ الصَّمْتُ الّذي يَسْبِقُ العاصِفَة.

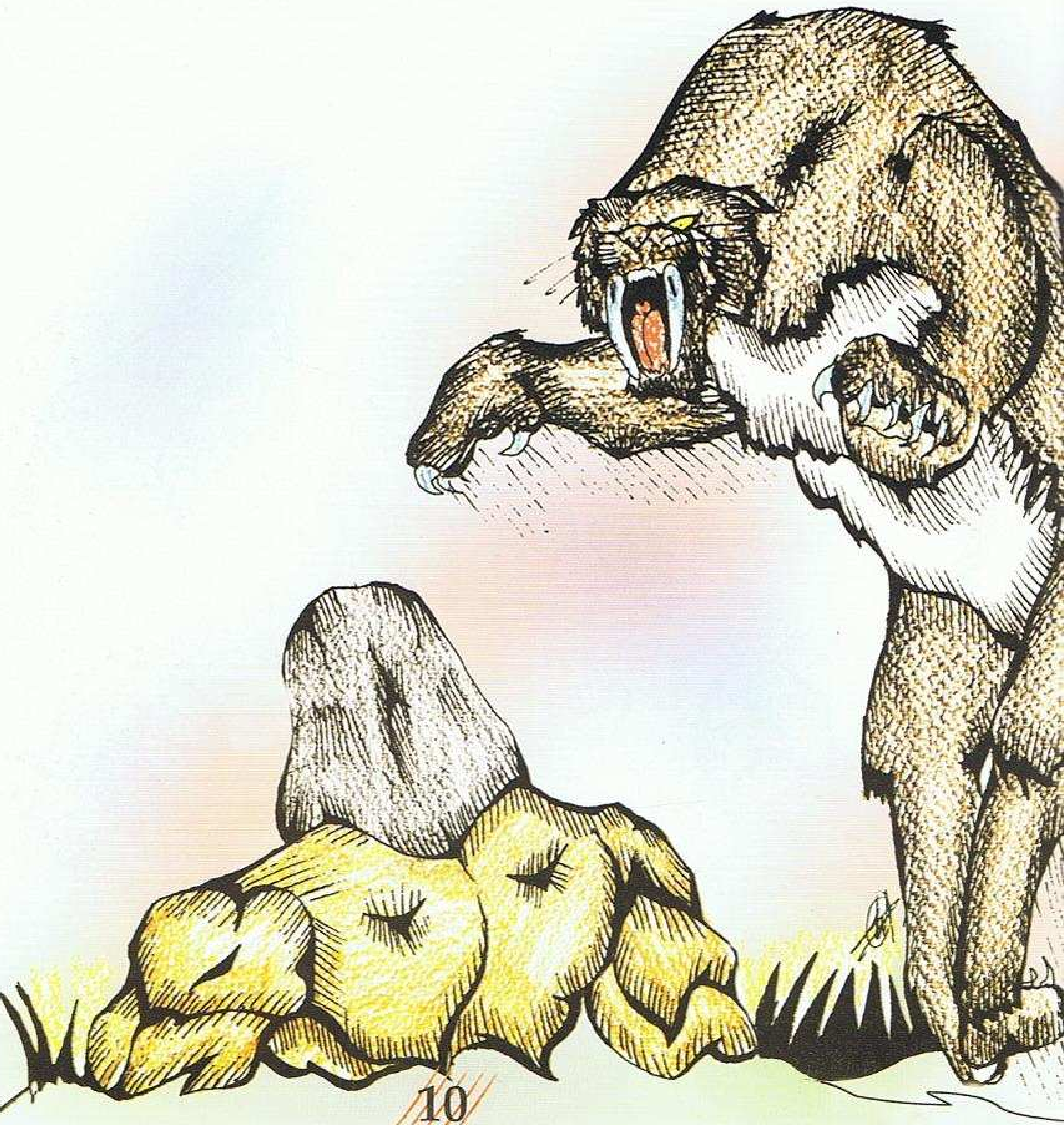
يَتوَجَّهُ نَحْوَ صَخْرَةٍ مُشْرِفَةٍ على مَجْرى النَّهْرِ، ويَتسَلَّقُها... وفَجْأةً!!

زَئيرٌ كَأنَّهُ الرَّعْدُ، يَقْطَعُ الأنْفاسَ، ويُزَلْزِلُ الأرْض...!
إنَّهُ "السَّيّاف"؛ يَقِفانِ الآنَ وَجْهاً لِوَجْه: بَطَلُنا والنَّمِرُ المُفْترِس.



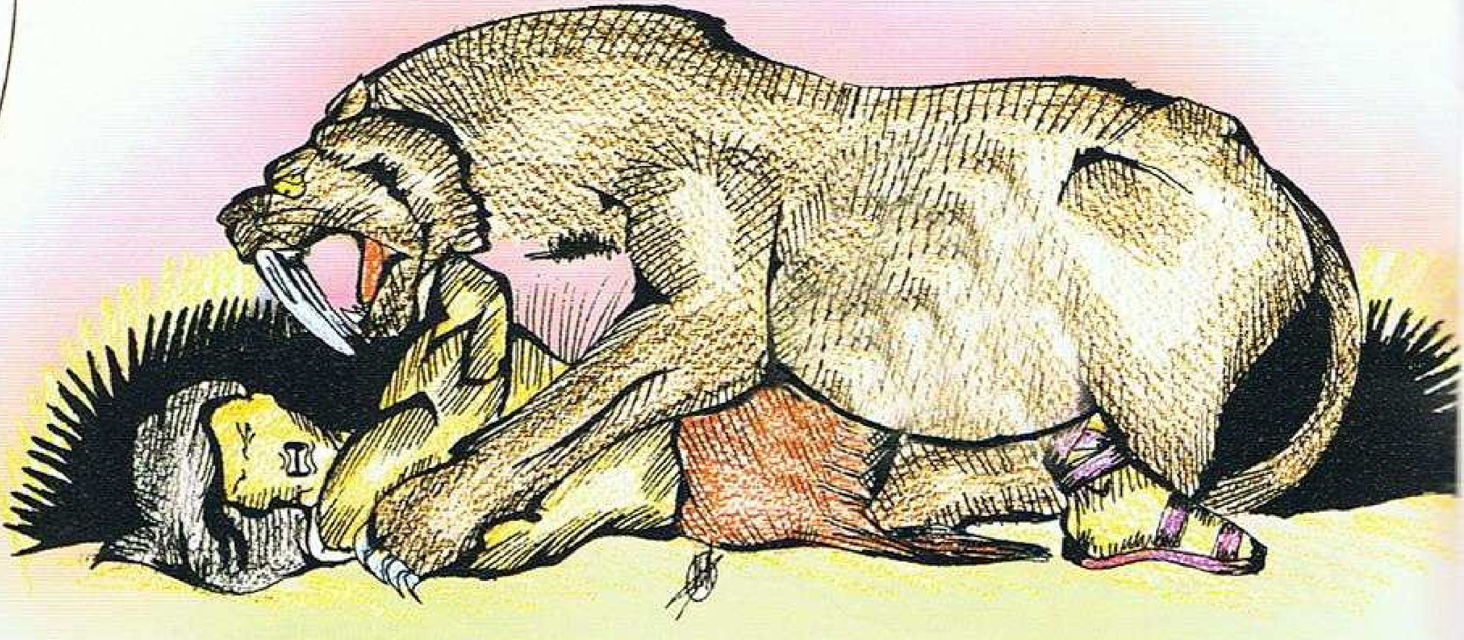
لَمْ يدَعِ النَّمِرُ الصَّيّادَ يلْتقِطُ أنْفاسَهُ، بَلْ هَجَمَ على "فاس".

وكانَ رَدُّ "فاس" سَريعاً، فَقَدْ صَوَّبَ نَحْوَ صَدْرِ النَّمِرِ سِلاحَهُ الحَجَرِيَّ المُسَنَّنَ بِكُلِّ ما أوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ، فاخترَقَ صَدْرَ النَّمِرِ وطَرَحَهُ أرْضاً، كَما وَقَعَ "فاس" أرْضاً.



زادَتِ الطَّعْنَةُ مِنْ شَراسَةِ النَّمِرِ، فَعاوَدَ الانْقِضاضَ، فاتِحاً فَكَّيْهِ وقَدْ بَرَزَ مِنْهُما نابانِ قاتِلانِ، مُحاوِلاً أنْ يَنالَ مِنْ رَقَبَةِ "فاس"، إلاّ أنَّ الصَّيّادَ الذَّكِيَّ إبْتَعَدَ في اللَّحْظَةِ المُناسِبَةِ، فانْغَرَزَ النّابانِ في كَتِفِهِ ومَزَّقاه...





ونَدَّتْ صَرْخَةُ أَلَمٍ مِنْ فَمِ "فاس"، وتَحَوَّلَتِ الصَّرْخَةُ غَضَباً، فاسْتَجْمَعَ "فاس" قِواهُ ورَفَسَ الوَحْشَ بِقَدَمِهِ، فانْقَلَبَ الوَحْشُ عَلى ظَهْرِهِ وقَدْ جُنَّ جُنونُه.

عاوَدَ النَّمِرُ الوُقوفَ مُجَدَّداً، وانْقَضَّ عَلى "فاس" الَّذي كانَ يُحاوِلُ النُّهوضَ مِنَ الأَرْضِ وقَدْ أَضْعَفَهُ نَزيفُ الدِّماءِ مِنْ جِراحِهِ...

ويَقْتَرِبُ النّابانِ القاتِلانِ مِنْ وَجْهِ "فاس"، تَفوحُ مِنْ خِلالِهِما أَنْفاسُهُ الكَريهَةُ ورائِحَةُ المَوْت.

هَلْ هِيَ النِّهايَة؟

كَلاّ، يَرْفُضُ "فاس" الإسْتِسْلامَ لِلْوَحْشِ ومَصيرِه... يَسْتَجْمِعُ قِواهُ، فَيَتحَوَّلُ إلى نَمرٍ بَشَرَيٍّ، ويَمُدُّ يَدَيْهِ إلى رَقَبَةِ الوَحْشِ غارِزاً أَصابِعَهُ بِكُلِّ ما أوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ في رَقَبَةِ الوَحْشِ الّذي يُحاوِلُ الإفْلاتَ فلا يَسْتَطيعُ، ويَسْقُطُ الوَحْشُ ... قَتيلاً.

لَقَدْ قَتَلَ "فاس" الوَحْشَ الكاسِرَ، وأَدْرَكَ أَنَّ الطَّعْنَةَ الأولى الّتي وَجَّهَها إلى صَدْرِهِ قَدْ مَزّقَتْ رِئَتَيْهِ وعَجَّلَتْ بِمَوْتِه.





يَصْرُخُ "فاس" صَرْخَةً تَشُقُّ أرجاءَ السَّماء... إنَّها صَرْخَةُ الفَرَحِ والنَّصْر.

ويَتَرَدَّدُ صَدى صَرْخَتِهِ في أرْجاءِ الغابَةِ والقَرْيَةِ، ويَهْرَعُ سُكانُها إلى الغابَةِ لِمُساعَدَةِ "فاس".

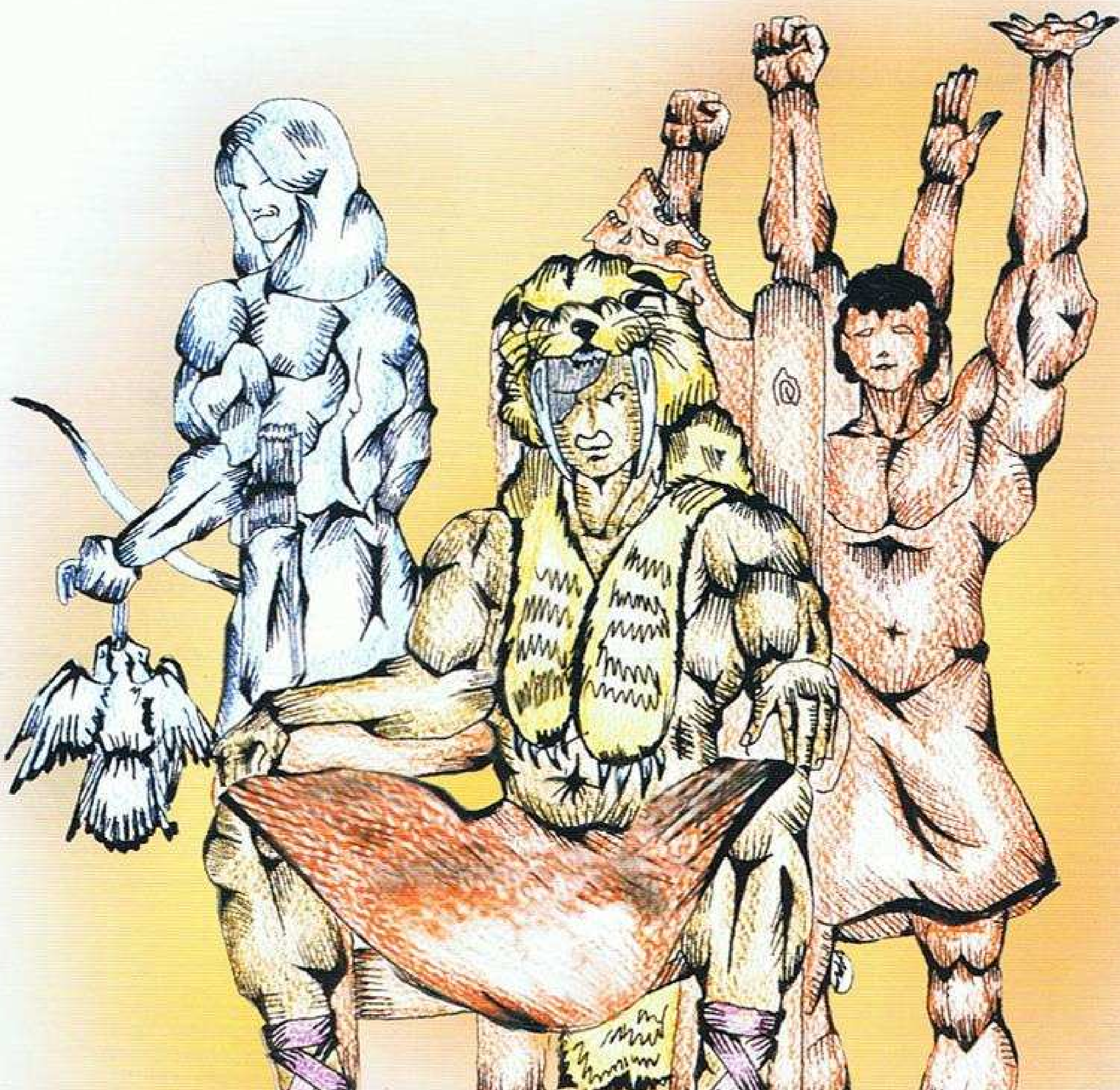
وَجَدَ الأهالي الوَحْشَ المُفْتَرِسَ مَرْمِيّاً عَلى الأَرْضِ دون حراكٍ ودِماؤُهُ تَنْزِفُ بِكَثْرَة.
ويَقِفُ الصَّيّادُ "فاس" إلى جانِبِهِ، فَخوراً بِعَمَلِهِ الجَبّار.

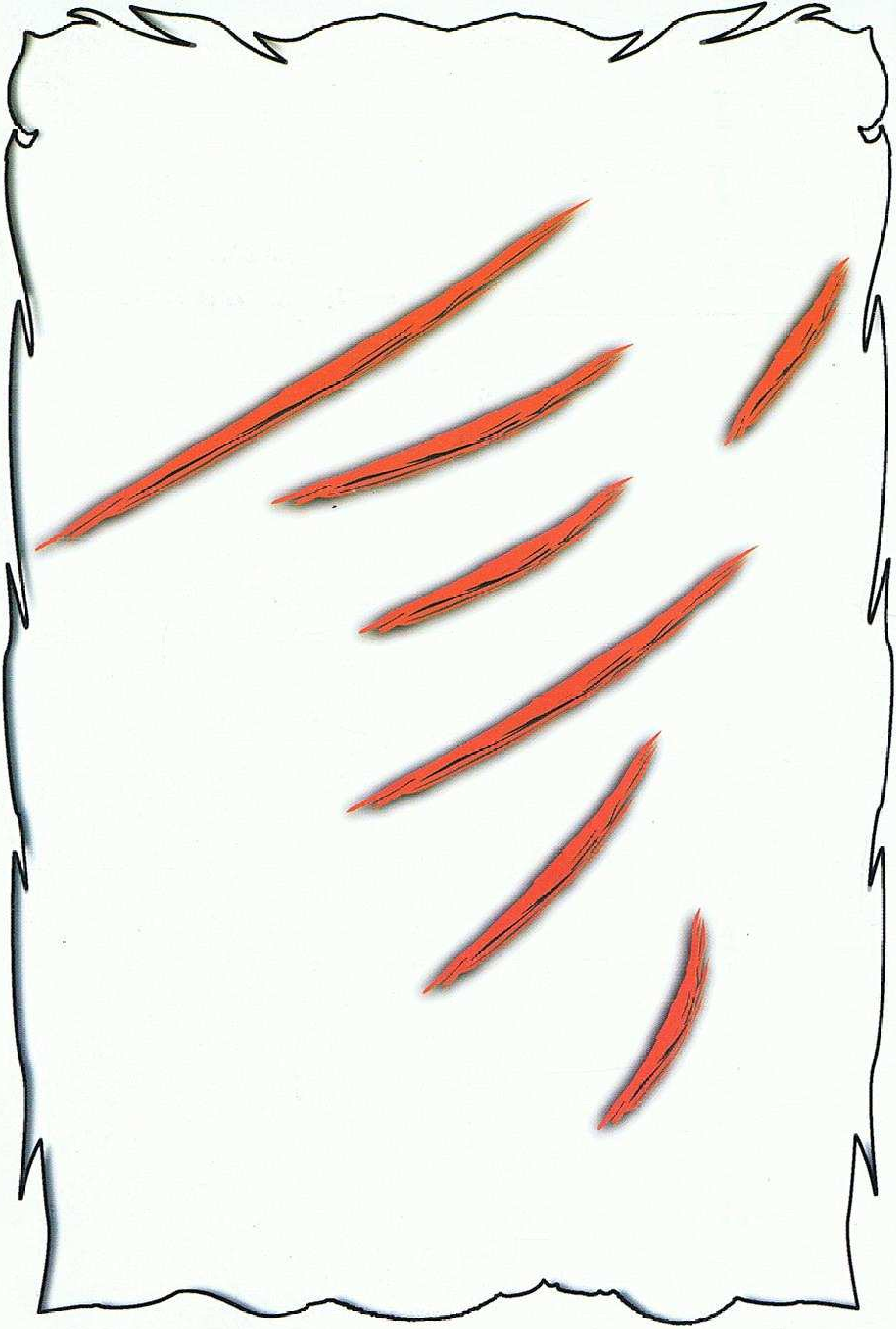
وتَنْطَلِقُ صَيْحاتُ الفَرَحِ والزَّغاريدُ مِنْ أَفْواهِ الرِّجالِ والنِّساء...
جَميعُ سُكّانِ القَرْيَةِ فَرِحونَ بِعَوْدَةِ بَطَلِهِمْ مُنْتَصِراً ومَعَهُ الأمانُ والطُّمَأْنينَةُ إلى القَرْيَة.

يَدْعو شَيْخُ القَرْيَةِ سُكّانَها لِلإجْتِماعِ في بَيْتِهِ، فَيُبارِكُ بُطولَةَ "فاس" وشَجاعَتِهِ، ويُنادي بِهِ بَطَلاً لِلْقَرْيَةِ وشَيْخاً شُجاعاً حَكيماً.



يُرَحِّبُ سُكّانُ القَرْيَةِ المُزارِعونَ بِبَطَلِهِمْ وشَيْخِهِم الجَديد. إلاّ أنَّ "فاس" لَمْ يُقْلِعْ عَنْ مُمارَسَةِ هِوايَةِ الصَّيْدِ، ولكِنْ بَعيداً عَنْ أعْيُنِ أهْلِ القَرْيَة.





قلق.. ورعب يسود القرية: إنّه الوحش المفترس.
لم يجرؤ أحد من شبّان القرية على مواجهته واصطياده...
إلاّ واحد.
من يكون هذا البطل؟
وما الّذي جعل منه رجلاً شجاعاً لا يهاب الموت؟

أصالة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان